ابن سعود ايضاً وايضاً

كتاب جديد للريحاني

بقلم الاب لامنس اليسوعي

مصائب قوم ...

كثر الضجيج مؤخراً حول ابن سعود وحول وهابيته (راجع مشرق ايار ص ٣٣٧–٣٤٤) ولم يكن ذلك مما يسوء طابعي المؤلفات عن بلاد العرب، في حالتها الحاضرة، وهم يتطلبون فرصةً للاعلان عن كتبهم، فكيف اذا اتتهم عفواً!

فلا عجب اذاً ان رأينا امين الريحاني يمدّ طبعةً جديدةً «لملوك العرب». بينما كانت الصحافة تحرّك النزاعة الوهابية، كان «فيلسوف الفريكة» ينشر في لندرة (Ibn Sa'oud of Arabia, his people and his land) وها نحن نستلم اليوم، من القلم نفسه، «تاريخ نجد الحديث، وسيرة ابن سعود»

ان شخصية ابن سعود، وآثاره، واعماله، تملأ اكثر من ثلاثة ارباع الكتاب. فيظهر بكل صراحة ان هنا غاية المؤلف المهمّة. ويدلّ على ذلك ايضاً تقدمة الكتاب الى ابن سعود؛ وهي تستحقّ درساً خاصاً، على قصرها وايجازها:

يبدأ المؤلف بذكر «العهد السعودي» كمن يذكر عصراً ذهبياً. فلا يرى، في كل تاريخ العرب، الّا فراغاً تامّاً، منذ عهد الخليفة عمر الى عهد ابن سعود، الذي يلقبه الريحاني «بعمر ثانٍ»؛ وقد كان هذا اللقب، حتى اليوم، يختصّ بالخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز. ثم يقول المؤلف:

«كان في بني امية معاوية، وفي بني العباس المأمون، وفي الايوبيين صلاح الدين. ثلاثة من عظام العرب، بل من عظام الرجال في التاريخ العام. ولكنهم، وان وصلوا الى ذرى المجد ورفعوا اعلام العرب في اقاصي البلدان، فلم يتمكّنوا من بسط سيادتهم على شبه الجزيرة كلها. ولا كان جمهم العنصر الاكبر فيها، اي البدو، الا كحطب للحروب»

ونحن نمرّ بسرعة على ذكر الكردي صلاح الدين الذي يتعته المؤلف بالعربي ، ويقيم منه مقابلاً لمعاوية والمأمون قوّةً وادارةً . على اننا نقف قليلاً عند حكم الريحاني على الامويين ، فيسمح لنا القرّاء ان نفضّل على هذا الحكم حكماً آخر لاحد معاصري الامويين ، وهو الشاعر ابن قيس الرقيّات ، الذي كان عدوّهم ، ولكن الحقيقة انتزعت منهُ هذا الاقرار فقال:

واضم معدن الملوك ، فلا تصلح ، الّا عليهم ، العربُ !

وهنا امر يتّفق على اقراره جميع المستشرقين ، وهو ان عصر بني اميّة كان اوفر العصور مجداً للعرب ، بل كان عصرهم الذهبي . ومن بعدهم ، بدأ العنصر العربي بالانحطاط ، اذ انتقلت الاسبقية في الخلافة الى العناصر غير العربيّة .

ولنذكر ايضاً ان الخليفة عمر نفسه ، هو الذي قال عن البدو انهم « مادّة الاسلام »(١ يعني انهُ كان يستعين بهم لسدّ الثُلم في جيش المسلمين . ولقد كان الخليفة عمر اوفر اسلاماً من ان يماكس القرآن الذي يدعو جميع البدو « منافقين » ، فلم يمكنه اذاً ان يعتبرهم الّا « كحطب للحروب . »

وعلى كل فان الله اشفق على العرب ، بعد ان انتظروا ١٣٠٠ سنة ، على قول الريحاني :

« الف وثلاثمائة سنة ! ثم كُتب لهم بسر ثانٍ ، بعث اليهم بعبد العزيز ابن سعود ليجمع شملهم ، ويوحّد مقاصدهم ، ويعزّز جانبهم ، ويؤسس ملكاً عربياً هو منهم ، وهو فيهم ، وهو لهم . »

وبعد هذا ، ماذا يجب ان يصنع ابن سعود ؟ ذاك ما يشرحه لهُ الريحاني فيقول :

« بيتم ، يا طويل العمر ، البيوت للبدو ، هي الخطوة الاولى في تمدينهم . فمتى ان تخطوا الخطوة الثانية فتبنوا لهم كذلك المدارس . ان في المدارس تخنق كل ما تنشدون . المدارس تكمّل عمل السيف . المدارس تمهد السبيل الى الوحدة العربية الثابتة ، الوحدة الشاملة ، الوحدة العزيزة الوثيقة العُرى . »

* * *

(١ الطبري : ١ ، ٢٧٢٦ ، ١٣

ان هذه التقدمة التي حللناها تظهر ما للريحاني من الثقة العمياء في دواء التعليم ؛ ولكنها تظهر ، فوق كل شيء ، ذلك التحمس البليغ لشخصية « عمر الثاني » وسياسته . تحمسٌ لا يصعب فهمه ، ومعرفة مصدره ، على من قرأ ملوك العرب . فلنتصوّر اللبناني امين الريحاني وقد فُتحت امامه على مصاريعها ابواب جزيرة العرب المكتنفة بالاسرار ، فسُمح لهُ بالتوغل حتى الى قلب نجد ، واستقبله الامير الوهابي استقبالاً حسناً ، وأضافه عنده اكثر من شهر ، وكان لهُ معهُ محادثات خاصّة ، واملى عليهِ معلومات عديدة . فكان في ذلك ما يكفي الانسان حتى يتحمّس وينقد رزانته ، وان فيلسوفاً .

ولنعلمنَّ ان ابن سعود رجل دقيق النظر ، داهية ، يعرف اخلاق من يقتربون منه ، ويعرف كيف يمتدح انانيّتهم ، فيجتذبهم اليه ، ويجعل منهم اعواناً لتحقيق مطامحه السياسية . وكان ابن سعود يعلم افكار الريحاني ، وامياله الى الوحدة العربية الشاملة . وكان يعلم ايضاً ان الريحاني يؤمن باصله العربي القحّ . ولا تعوقه عن شيء معتقداته الدينية . وكان يعلم انهُ صاحب قلم ، وان هذا القلم يدخل اندية ومجتمعات لا تدخل اليها كتابة محمد رشيد رضا ولا مجلة المنار ، فيمكنه اذاً تمهيد الطريق في سوريا ، حيث نسبت الصحف مؤخراً الى الامير الوهابي ، مطامح دولية . كل هذا كان يعرفه ابن سعود ، فكان من الصواب ان يستجلب ذاك الرجل . وقد رأينا كم بذل « عمر الثاني » في سبيل هذا الامر ، وكيف نجح !

* * *

بعد هذه التحفظات ، نذكر بكل طيبة خاطر ما نراه من الحسن في هذا المؤلف الجديد . فان المآخذ والوثائق غاية في الدقّة والاهمية ؛ وهي تشمل اولاً معلومات ابن سعود نفسه الشفهية والخطية ، ثم المنشورات العربية عن الوهابيين واميرهم وفيها تواريخ لبلاد نجد وحوادثها الاخيرة ، وهي وثائق لا يعرفها الكثيرون بل يصعب الحصول عليها ؛ وقد قابلها الريحاني بمؤلفات المستشرقين وناشري الكتب الغربيين ، ثم بالمنشورات الرسمية والنصوص الادارية التي ظهرت حتى سنة ١٩٢٧ . فتكوّن من كل ذلك تاريخ جامع ، بل اجمع تاريخ نعرفه

للحركة الوهابيّة، منذ نشأتها الاولى حتى حوادثها الاخيرة التي نالت ابن سعود لقب «ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما». وفي كتابة هذا التاريخ، يبذل المؤلف بعض الجهد ليقف موقف الحكم العدل، الّا ان المطالع يشعر ان الدور الحسن يُحفظ دائماً «لعُمر الثاني» وهكذا فان المؤلف يذكر (ص ٢٥٦ وما يليها) بطريقة مؤثرة مأساة بيت الرشيد حيث ذُبح جميع افراد عائلة ابن الرشيد، بعد ان أُمنوا على حياتهم. ولكنه يتجنب البحث في اقرار تبعة ابن سعود في هذه المجزرة المؤلمة التي تذكرنا، بما فيها من التدبير والترتيب، بوحشيّة بني العبّاس في استئصال الامويين.

وهناك مسألة اخرى فيما يختصّ بموقف ابن سعود تجاه الحجاز، فانهُ كان قد وعد رسمياً بانتظار قرار العالم الاسلامي عن مصير ذاك القُطر. ولكنه، اذ تحقّق ان هذا القرار سوف لا يوافقه، نادى بنفسه ملكاً على الحجاز. ويشرح لنا الريحاني هذا الحادث (ص ٣٨٨ وما يليها) على الطريقة السعودية. ولكنه لا يذكر شيئاً عن الاحتجاجات التي رفعها المؤتمر الاسلامي المنعقد في مكة، في حزيران ١٩٢٦، فهل امكنه ان يجهلها؟

ومع ان الريحاني من انصار الوحدة العربية الشاملة، واعداء الدول الاوربية «الاستعمارية» في قوله، تحقّق ان فشل الوحدة العربية ناتج عن انقسام امراء العرب، ومعاكساتهم وخيباناتهم بعضهم لبعض (ص ٢٠٨) اكثر منهُ عن سياسة اوربة. وهكذا فان ابن سعود نفسه، بعد ان اتخذ لقب «السلطان» سنة ١٩٢١، كتب الى المفوّض السامي البريطاني يطلعه على الخبر «ويرجو ان يكون ذلك مستحسناً لدى الحكومة البريطانية العليّة» (ص ٢٤٩)

* * *

كان في حاشية ابن سعود سنة ١٩١٥، ضابط انكليزي برتبة كابيتين اسمه شيكسبير؛ وكان الامير على وشك الاشتباك في معركة مع ابن الرشيد، فاراد منع الضابط من حضورها.

فاجاب شكسبير: «لا يجوز ان يُقال ان رجلاً انكليزياً قرب من ساحة القتال بين ابن

سعود وابن الرشيد ورجع جبانةً وخرقاً.»

الحّ عبدالعزيز في النصيحة، فالحّ شيكسبير في الاستئذان، وركب مع الجيش الى ساحة القتال، الى حراب.

قد كان هذا الضابط الشاب انكليزياً نحّاً، شديد التمسك بعادات اجداده وتقاليد أمّته في اي مكان كان. فلم يتنازل في البلاد العربية عن شيء منها. هو الرحالة الانكليزي الوحيد، على ما اظن، الذي ابى ان يبدل برنيطته مثلاً بالكوفية والعقال، ولا جامل العرب في داخل البلاد بغير العباءة التي كانت تستر ثيابه الافرنجية.

ولكن البرنيطة ا- ركب في جيش ابن سعود وهو لابسها، وحامل بين امتعته آلة التصوير» (ص: ١٩٨-١٩٩)

وكانت نتيجة هذه الوقعة سيئة على الضابط المسكين، فان احدى الرصاصات الطائشة طرحته جثة لا حراك بها.

وان المقاطع الوصفية الدقيقة من هذا النوع، تكثر في كتاب الريحاني فتزيده لذة ورونقاً. وها نحن نذكر مثلاً آخر، يدور فيه الكلام عن امير حائل، عبد العزيز بن الرشيد († ١٩٠٦) ويشعر فيه الانسان بذاك التصلّب الفولاذي الذي يميّز بعض امراء البدو.

«كان عبد العزيز جالساً للناس في الفلاة يوماً من الايام، فاحسّ شيء يلذعه في ظهره، فخاف ان تكون حشرة لا تستهان الاهتمام، فسكت وتجلّد حتى انتهى من عمله. ثم دخل الى الخيمة وطلب احد عبيده، فرفع العبد ثياب عبد العزيز، فاذا بين كتفيه عقرب كبير بقرص جلده. صاح العبد مذعوراً، وخشي ان يمسّ العقرب، فتناوله عبد العزيز بيده ورماه خارج الخيمة. ثم امر العبد ان يذرّ على مكان اللذع رماداً حامياً ففعل، ونام الامير بعد ذلك كأن لم يكن شيئاً.» (ص: ٩٨-٩٩)

وكذلك يشعر المطالع بما في نفوس الوهّابيين من العجب والخيلاء، اذ يقرأ هذا الكتاب الذي ارسله اميرهم الى سلطان الاستانة، سنة ١٨٠٣، بعد دخوله مكة، قال:

«من سعود الى سليم: اما بعد فقد دخلت مكة في الرابع من محرّم سنة ١٢١٨ وآمنت اهلها على ارواحهم واموالهم بعد ان هدمت ما هناك من اشياء الوثنية، والغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً. وثبت القاضي الذي وليته انت طبقاً للشرع، فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدّس فان ذلك ليس من الدين في شيء. وعليك رحمة الله وبركاته.» (ص: ٥٨)

والريحاني يتتبع المؤرخين الغربيين في انشاء اوصاف فارقة(portraits) لأهم الابطال الذين يعرضهم في كتابه . ومن الحق انه ينجح في ذلك نجاحاً لا بأس به . ونحن نعرض مثالاً على ذلك وصف مبارك بن الصباح ، امير الكويت

« كان حاد المزاج ، شديد البأس ، كثير التقلب . فيه شيء من الاسد واشياء من الحرباء . بدوي الطبع ، حضري الذوق ، تارة يجبه الحسم وطوراً يجامله . وكان كريماً جواداً ؛ بل كان مسرفاً . يسترسل الى الترف والبذخ ، ويقدم بعد حبه للمجد والسيادة ، نواعم العيش ونوافله على كل شيء سواها .

اما سيف مبارك فكان مثل سياسته ذا حدين . قتل اخويه محمداً وجراحاً طمعاً بالامارة ، وحباً بالمجد ؛ فكان اميراً مجيداً . هو من اولئك الحكام المتفردين بالحكم الذين يرهقون الامة بالضرائب ليحوكوا لها حللاً من الفخر والعز باهرة .

شيد قصوراً في الكويت وهدم قصوراً في السياسة . كان يلقب بـ « الحواقة » من حاق ومرادفاتها مثل دار ولف ، اي ما يراد به السير على عكس الخط المستقيم . نصف عمله سر لا يدركه سواه ، والنصف الآخر خدعة باهرة ؛ او خدعة مضحكة ، او خدعة كثيفة مدلهمة .

لاعب المشاتر وغلبها ، وما كان دائماً من الفائزين أجزل لها العطاء ، فاخذت ماله وهداياه ، ودعت لاعدائه . » (ص : ٩٥-٩٦)

وهذه بعض مميزات طبيعية للبدو تصور اخلاقهم ادق تصوير :

« والبدو مثل ذي الاجنحة طيارون . او ان لهم مرية الرشق ، فيجتمعون ويفترقون ، وانت تتلو الفاتحة . لا يحملون شيئاً في جيوبهم ، ولا في قلوبهم ، بل لا جيوب لهم ولا قلوب . رفاقك في الطريق اليوم ، اعداؤك غداً . ولا اظنهم لولا الجنة والحوريات ، يخضعون لرب الكائنات . قد اكون مخطئاً بهذا وهم يكثرون من ذكر الله في كل حالاتهم .

ولكن النبي نفسه أنبهم ولم يتهمهم بالتأنيب . فقد جاء في القرآن : قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا .

انا الذين عندهم فكالرداء يلبسونه ردحاً من الزمن ، فيفسدونه مرة او مرتين ثم يلبسونه مقلوباً ثم يبذونه وقد تمزق نبذ النواة — كيف نتوضأ ونحن نبغي الماء للشرب ؟ ولم الصوم والسنة كلها عندنا رمضان ؟ ولم — الصلاة وليس ثم وقت ليسمعنا ؟ » (ص : ٢٣٣)

ثم يعرض الريحاني بسرور وعجب (ص : ٢٣٤) ، كيف اجتهد ابن سعود ونجح في تقييد بعض الوف من البدو بالارض ، حتى اقاموا البيوت الثابتة . وان اصعب عقبة في سبيل حياة الحضر هي الجمال

« ومعلوم ان رزق البدوي الباعرة ، فما زالت عنده ما زالت البادية تستهويه ، فيروح في

ساعات الضجر طالباً الرزق حلالاً او غزواً حيث كان. لذلك جُبر البدو على بيع جالهم.»
(ص : ٢٣٥)

وهكذا فقد ألف ابن سعود نحو ٧٠ هجرة ، والهجرة هي الطارئة الزراعية في بلاد نجد.

وهنا نسأل نفسنا ما سيكون مستقبل هذه الهجر ؟ ونحن نعلم ان كثيراً من الواحات في بلاد نجد اضمحلت او كادت بسبب الجدب الذي يمتد احياناً عدة سنين دون ان تجود السماء بنقطة من الغيث وقد ذكر الريحاني مثلاً على ذلك بقعة اليمامة (ص ١٣و١٦) التي كانت قبيل الهجرة ، مقاطعة فسيحة ، مشهورة بخصبها . اما اليوم فلا تتجاوز مساحة الارض الخصبة فيها الا بضع كيلومترات ، اما ما بقي فقد غطته الرمال القاحلة . فهل تعيش اصلاحات ابن سعود الزراعية الى ما وراء حياته ؟ وهل يجد خلفاً قادراً على القيام بهذا الارث المثقل ؟ هذا هو السؤال نفسه الذي يُطرح ، اذا ما ذُكر مصطفى كمال وموسوليني وسائر المتسلطين في العصر الحاضر . ولا يجتهدن الريحاني في نسبة امره الى الاخلاق الديموقراطية ، فان « عمر الثاني » لا ينقص في شيء عن المتسلطين.

ولا يمكننا الّا ذكر تلك الكلمة التي كان يردّدها السياسي تاليران وهي: « فلنترك الوقت للزمان ! » فالزمان وحده يجيبنا على تلك الاسئلة ، ويعرض عمل ابن سعود على محك الثبات : فبدلاً من ان نتعرّض للتكهن ، وهي دعوة لا نحسّ من نفسنا بالميل اليها ، نكتفي بالقول ان كتاب الريحاني ، على ما فيه من التفاؤل ، يفيدنا كثيراً في معرفة بلاد العرب في حالتها الحاضرة ، وفي تفهم تاريخها العصري ، وفي درس شخصية ابن سعود الصعبة البارزة.